المعركة عند المرابطين والموحدين

الدكتور/ توفيق مزاري عبد الصمد

جامعة يحي فارس بالمدية

الملخص:

انطلاقا من المعارك التي خاضتها جيوش المرابطين والموحدين، وبناء على ما أحرزته من انتصارات في المغرب والأندلس، تهدف هذه المداخلة إلى دراسة النظام العسكري للمعركة قصد فهم التكتيك الحربي داخلها، وما ترتب عن ذلك من فنون حربية وطريقة قتال ووسائله و مقارنة ذلك بين جيوش المرابطين والموحدين. فالمرابطون اعتمدوا على نظام الخماسي في المعركة المستوحي من نظام القتال الذي عرفته الجيوش الإسلامية، بينما اعتمد الموحدون نظام التربيع الذي ابتكره عبد المومن وهو نظام متأثر بطريقة قتال الروم.

مقدمة:

يعتبر ظهور المرابطين وبعدهم الموحدين كقوى إسلامية ناجحة حاولت إعادة التوازن الاستراتيجي والعسكري في القسم الغربي من العالم الإسلامي، وسعت إلى إعادة اللحمة الإسلامية لمواجهة الأخطار الصليبية المبكرة، وما حققته من انتصارات في مواجهة نصارى الأندلس في معارك كبرى كمعركة الزلاقة عام 479هـ/ 1086م و معركة الأرك *Alarcos* في شعبان 591هـ/ يوليو 1194م، ليدفع فضول الباحثين إلى البحث والدراسة في مكونات الجيوش المرابطية والموحدية وطرق قتالهم واستراتيجياتهم الدفاعية والهجومية.

إعداد المعركة:

قبل دراسة المعركة من الداخل عند المرابطين والموحدين لابد من الإشارة ولو بشكل موجز لخطوات التي تسبق ذلك. فالمرابطون اعتمدوا من أول معاركهم الحماسة الدينية باعتبار حروبهم جهادا مقدسا، وذلك بالترغيب في ثواب الله والتشويق في الجنة والتخويف من النار، فعندما ندبهم عبد الله الجزولي إلى الجهاد قال لهم: ".. أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده".[1] وكان لهذا الأسلوب دور هام في انضباط الجند وطاعة القائد، وتمثيل أوامره عن رغبة ملحة لتحقيق الانتصارات.[2]

وظل المرابطون تحت قيادة يوسف بن تاشفين يبلون في الحروب بمنتهى الإقدام والشجاعة ويطلبون الموت شهداء في سبيل الله واجتباء لنعيم الخلد، ومن ثم كانت هجماتهم من العنف بحيث لم يقو أحد على ردهم.[3] يذكر ابن أبي زرع: "كان أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين يمر بين ساقات المسلمين، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول: يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم

---

1 السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)تـ 1315هـ/ 1936. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب دار البيضاء، ط 1934 ج2 ص9

2 – مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق السيد البشير الفوزي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس ط1 دو تاريخ، ص 11 وجاء فيه قول ابن ياسين:" إنكم صبرتم ونصرتم دين رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وقد فتحتم مكان ما أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم ثم أمرهم بالخروج إلى الجهاد"

3– أشباخ: تاريخ الأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة ط3 1377هـ/ 1958 ، ص 480

والغنيمة،[1] وهذا ما يجعل المرابطين يقاتلون قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت، وكان هذا الشغف بالجهاد يبدو بنوع خاص في قتال النصارى الأسبان[2].

أما الإعداد المادي فيشمل عملية التجنيد قبل كل معركة والذي عادة ما يتم بطريقة الاستنفار الجماعي، فيقوم الخليفة بإرسال الرسائل إلى الأقاليم يؤكد لهم القدوم بعدما يحرضهم على الجهاد ونيل المغانم الكثيرة، لأن المرابطين لا يخوضون الحروب بالجيوش النظامية وحدها، بل يدعمون صفوف الجيش بالعديد من المتطوعة والمرتزقة، ومن أهم وسائل التجنيد عند المرابطين الإيثار بالغنائم، وعادة ما كان قائد الجيش يبعث جواسيسه يستطلعون أخبار العدو ويستكشفون قوته ومواطن الضعف منه.[3]

كان تموين الجيوش يقع بالدرجة الأولى على كاهل الدولة، ومن المصادر الأساسية لذلك ضريبة تفرض على المبيعات على الأسواق[4] وتسمى الفرضة Alfarda وتفرض بغرض المساعدة في تجهيز الحمالات العسكرية لأغراض الجهاد.[5] وعادة ما تسير الجيوش إلى المعركة تصطحبها دواب محملة بالأقوات والخيام، وتكون في المؤخرة ووراءها قطعان الماشية من كل صنف

1- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)تـ 726هـ/ 1325م. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مطبعة فاس 1305هـ ج2 ص95

2- أشباخ: نفس المرجع، ص 480

3- الإحاطة في أخبار غرناطة، نشر وتحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف مصر،ج1 ص457، والحلل الموشية، ص 100

4-أمين توفيق طيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط تونس 1984 ص 335

5 *Lévi. Provençal ; l'Espagne Musulmane au 10 eme siècle Paris* 1931 p 98

يقودها الرعيان.[1] إضافة إلى التسليح الذي كان في البداية بسيطا يعتمد على أسلحة يدوية، ثم تطور وتنوع مع الزمن بسبب الاحتكاك بغيرهم في الحروب، فعرفوا الإبل، الخيل، الفيلة، والحمام الزاجل، ومن الأدوات الحربية عندهم الطبول:[2]والأبواق، التي من المحتمل أن المرابطين أخذوا هذه العادة عن جيرانهم السودان، كما استخدموا الأطاس وهو خنجر معقوف يستخدم عند الاصطدام المباشر، والدرق اللمطية: وهي لباس حربي خفيف يستعمل كدروع في الحروب،كما استعمل المرابطون السيوف الهندية، والمطارد وهي نوع من الرماح القصيرة،[3] التي كان يضرب بها المثل في جودتها ومناعتها، وصنعوا دروع الحديد التي احتاجوا إليها في حروبهم ضد النصارى،[4] بالإضافة إلى مزارق الزان الطوال التي يفوق طولها ستة أذرع،[5] والمسنونة جيدا، تتسلح بها الصفوف الأولى من الجيش لطعن خيل العدو في المعركة.[6]

---

1 – جورج عثمان: النظم الإسلامية في المشرق و المغرب و الأندلس، منشورات مكتبة الوحدة العربية، دار البيضاء بالمغرب، د ت ص .153 و أشباخ: المرجع السابق، ص 480

2- ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي) تـ 712هـ: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، ط بيروت 1967م ص131، و الاستقصا، ج2 ص47

3- الإحاطة، ج1 ص458

4- ابن خلكتن (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)تـ 681هـ/ 1282م،25. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1971، ج7 ص 118، الاستقصا، ج2 ص47

5- الحلل الموشية، ص85

6- البيان المغرب، ج4 ص35

واقتبس المرابطون الكثير من آلات القتال عند ملوك الطوائف ومن الأمويين والروم، كالرعادات والمنجنيقات والتروس.[1] ومن عادتهم الحربية أن يلبسوا البيضات والبرانس الخفيفة،[2] ويضعون على رؤوسهم عمائم،[3] واتخذوا من اللون الأسود شعارهم مثل العباسيين فكانوا يحملون الأعلام السوداء ويرتدون المعاطف السود.

وكان لكل فرقة علمها الخاص من مختلف الألوان،[4] عليه رسوم ونقوش ونقوش خاصة.كما اتخذوا القصبات والمخازن في قصورهم ومقر حكمهم[5]لتخزين الأسلحة والأموال، وكانت تصنع من اللبن الطيني.

أما تحضير المعركة عند الموحدين، فقد كان ينبني على ادعاه المهدي بن تومرت من مشروعية دينية وسياسية، منها إدعاءه النسب الشريف، وتبني الفكرة المهدوية[6]، لبعث الثقة في النفس بادعاء الحق للذات[7] وعن طريق التشهير التشهير بالأعداء.[8]

1- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) تـ 776هـ/ 1374م: القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلامن تحت عنوان (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب ، الدار البيضاء ط 1964، ج2 ص118

2- طاروجان وجيروم: أزهار البساتين في المغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلا فريج زمحمد الفاسي، المطبعة الوطنية، الرباط ط 1349هـ/ 1930م ، ص53

3- ابن الخطيب: تاريخ المغرب الوسيط، ص244

4- أشباخ: تاريخ الأندلس، ص479

5- روض القرطاس، ص89

6 - ابن خلدون: المقدمة، ص 295، وانظر دائرة المعارف، إدارة فؤاد البستاني، بيروت 1958، ج3 ص 389

7- المراكشي (عبد الواحد بن علي) تـ 669هـ/ 1270م. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح الأستاذان محمد سعيد ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ط1 1368هـ/ 1949م، ص192 .

8- المراكشي: المعجب، ص192

ولا تختلف عملية التجنيد لدى الموحدين عن المرابطين كثيرا، فقد كان الجيش الموحدي يعتمد أساسا على القبائل وبطريقة الاستنفار العام،[1] فتقدم كل قبيلة ما فرض عليها من مشاة وفرسان. بالإضافة إلى حشد أعدادا ضخمة من الراغبين في الجهاد ويسمون المتطوعة،[2] لكن تطور نظام التجنيد عند الموحدين كان أكثر دقة وفعالية من سابقيهم المرابطين، فقد أصبح في عهد عبد المومن يشرف على التجنيد ديوان خاص يقوم بعملية الإحصاء الدقيقة.

ومن عادة حكام الدولة الموحدية ألا يأتوا عملا إلا إذا جمعوا الطبقات والهيئات للاستشارة، ولا يقومون على استنفار أو غزو إلا بعد أن يقرر المجلس الحربي ذلك. وفي بعض الأحيان تؤخذ موافقة الرعية على القرارات المتخذة،[3] وتتجلى في شكل رسائل تحررها الطبقة الواعية في البلاد وتبعث بها إلى السادة.

أما إذا هدد الدولة خطر يصبح التجنيد إجباريا، فيكتب الخليفة إلى الولاة، ويعين لهم مكان بيعته ليجتمع الجيش من الجهات المختلفة، ثم يحدد الأهداف والخطة العسكرية.

وكان تموين الجيوش أشبه بضريبة حربية تقع على كاهل الأقاليم المختلفة، التي تقدم نصيبها من الفرسان والسلاح[4] والمؤن المتنوعة بحسب ما تملكه كل قبيلة من الخيرات. وعادة ما تتكون هذه المؤن من الدقيق والعلوفات،

1- غلام عبد الله علي: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن علي، دار المعارف مصر، ط 1971، ص 260، وأشباخ: تاريخ الأندلس، ص 487

2- البيان المغرب، ج3 ص174

3- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد)تـ 596هـ37. المن بالإمامة على المستضعفين بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، استخرجه من مخطوط أكسفورد بأنجلترا عبد الهادي التازي وحققه، دار الندلس بيروت، ط1 1383هـ/ 1964م، ص 54

4- أشباخ: المرجع السابق، ص487

وإدرار النعم والقمح والشعير والزيت والملح، والآلات والمرافق، وتسمى "الميرة"،[1] إضافة إلى الخيام والأسلحة التي تحمل على ظهور الجمال والدواب.[2]

ومن وسائل الموحدين الحربية الخيل التي يختارون المسومة منها،[3] و يقدمون مصحف عثمان بن عفان-رضي الله عنه-[4] وقدامه مصحف الإمام المهدي،[5] ويصطحبون معهم الترجمان والبريد الحربي لاسيما في الأندلس، ويختار عماله عادة من الأذكياء.

أما آلات الحرب بالإضافة للأسلحة التي ورثها الموحدون من عهد المرابطين، فقد أدخلوا تحسينات عليها، وأضافوا آلات أكثر تطورا، ظهر من خلالها اقتباسهم من النورمان ونصارى الأندلس، ومن آلاتهم الحربية، الطبول، والرايات، ومن الأسلحة الفردية إضافة إلى السيوف الهندية والدرق اللمطية والقيسي والدروع والبيضات،[6] والقوس والنبال. فقد استعملوا الأمراس وهي حراب طويلة للمشاة طولها أثنى عشر قدما، يقذفون بها في وجوه الأعداء في قوة وسرعة. ومن جهة أخرى اعتمدوا الآلات الضخمة والمتنوعة في حصار

1- المن بالإمامة، ص525

2- عثمان جوريو: النظم الإسلامية، ص152، ذكر ابن صاحب الصلاة "عددها بأربعة آلاف بغل" المن بالإمامة، ص 462

3- المن بالإمامة، ص 419

4- وهو الذي كان عند عبد الرحمن الناصر من خلفاء بني أمية بالأندلس، وكان في زمن عبد المومن في جامع قرطبة، فبعث إليه وجيء به وأنفق عليه أموالا عظيمة، ووضع له تابوتا عجيبا، وغلفه بغلاف صفائحه من الذهب، ورصعه بالياقوت الذي هو على شكل حافر الفرس، وفيه الدرر النفيسة والزمرد، ولما أكمله صنع له هودج، وعلى الهودج أربع علامات، وصار يسبقه هو وأبناءه في الحروب. راجع الحلل الموشية، ص119

5- المن بالإمامة، ص ص 439 440، وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج4 ص 375

6- المن بالإمامة، ص 430، وانظر *R. Bourouiba ; Abdal Mumin, p* 72

القلاع[1] منها المنجنيق لدك أسوار الحصون،[2] فقد استخدمه عبد المومن في تدمير أسوار المهدية[3] سنة 555هـ، واستعمله الناصر في حصار حصن سلطرة ببلاد قشتالة سنة 608هـ.

ومما ذكر عن أسلحتهم أنهم كانوا يملكون آلات تشبه المدافع الخشبية، تقذف بفضلها كتلا هائلة من الحجارة وكرات ملتهبة (الحرقات)[4] ونحن نفضل ما رجحه بعض المؤرخين في أن الموحدين توصلوا إلى استعمال البارود في قذف هذه الكرات الحديدية،[5] واستعملوا النار اليونانية أيضا. وكانت الدبابات الخشبية تشحن بضروب من السهام، وقد استعملها يعقوب المنصور في فتح مدينة قفصة التي كانت تحمل اسم "البرج المبارك".[6] واستعملوا السلالم[7] للمدن المحصنة، يقول صاحب الحلل الموشية في حصار الموحدين لمراكش: "أمر عبد المومن بعمل السلاليم للسور فقسمها على القبائل". كما استخدموا الألبسة الحديدية[8] لقوات الحرس الخاص في بعض الأحيان بقصد الثبات في المعركة، وقد وقد وصف صاحب المن بالإمامة ذلك بقوله:" لبسوا على ما تقدم لهم السوابغ والبدان، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنمكبوا القسي والمران"[9]

ترتيب المعركة عند المرابطين:

---

1 عثمان جوريو: النظم الإسلامية، ص153، وحسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص371

2- السلاوي: الاستقصا، ج2 ص104

3- القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1086هـ، ص 111

4- الحلل الموشية، ص111 و72 R. *Bourouiba ; Abdal Mumin, p*

5- أشباخ: المرجع نفسه، ص490

6- المريني عبد الحق: الجيش المغربي عبر العصور، الرباط بوتيه، 1967، ص25
وانظر *R. Bourouiba ; Abdal Mumin, p* 72

7- الاستقصا، ج2 ص104

8- أشباخ: المرجع نفسه، ص489

9 -المن بالإمامة، ص 435

وصف المؤرخون اللمتونيين بأهم شعب وافر البراعة شديد المراس في الحرب،[1] لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم، وكانوا يطورون فنون قتالهم في كل مراحل حروبهم وتوسعاتهم نحو الشمال وعند غزو كل مدينة[2]

وكان ترتيب المعركة عندهم يقوم على نظام خماسي:

-المقدمة: يحتلها الراجلون من المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، يتقدمهم العبيد وهم يحملون القنا الطوال والدرق اللمطية والسيوف الهندية، تتكون من مشاهير زناتة ولفيف الحشم، ويسبقهم حامل الراية الذي يشير إليهم بها. فإذا نصبها وقفوا وإذا أمالها جلسوا، وكان هؤلاء من أشجع الفرسان يختارون الموت على الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف.[3]

- الجناحين: في الميمنة والميسرة، الفرق التي تحمل القسي والنبال، وأكثرهم من أهل الثغور وكفاة الدولة، يلبسون الدروع وهم واقفون، بينما يضل جنود الصف الأمامي واضعين ركبتهم اليسرى على الأرض وفي حالة استعداد.[4]

-القلب: يتكون من الخيالة مزودين بالأسلحة الثقيلة،[5] وإليها يرجع الفضل غالبا في إحراز النصر في المعارك الحاسمة.وكان في القلب وجوه المرابطين

---

1 -الحلل الموشية، ص10 ، و ابن خلدون: المقدمة، ص230، والبكري، ص166

2- *Abdallah. Laroui ; L'histoire de Maghreb, p* 150

3- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي) تـ 487هـ/ 1094م: المغرب في ذكر إفريقية و قالمغرب من كتاب المسالك و الممالك،نشره *Deslane* بعنوان: *Description del'Afrique septentrionale* الجزائر ط 1911، ص 317،و الحلل الموشية، ص11 ، وابن الخطيب: تاريخ المغرب الوسيط، ص258

4 - الحلل الموشية، ص91، والإحاطة، ج1 ص 460

5-أشباخ: المرجع السابق، ص479، المريني: ص20، وعنان: عصر المرابطين، ص418

يتوسطهم القائد العام،[1] فإذا بدأ القتال انطلقت مزاريق الصف الأول، وتلتها سهام الرماة، ثم يفسح للفرسان الموجودون في القلب مجالا بين الصفين ويتسارعون للهجوم على الأعداء.[2]

-وكانت القوى الخلفية أو الاحتياطية يقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحبا الجيش، وتتألف من صفوة الجنود وحرسه الخاص[3] من العبيد والنصارى، ولا تدخل المعركة إلا إذا حدث ضعف في صفوف المسلمين المحاربين، فينقض الخليفة أو نائبه بهذه القوى الاحتياطية على الأعداء لحسم المعركة. وقد يلجأ إذا رأى تفوق خصومه في العدد والعدد إلى استمداد الولاة والعمال الذين كانوا يتوفرون عادة على حاميات محلية.[4] وكان الجند يحشدون وفقا لمختلف القبائل والأقاليم، وبذلك شكلت الروح القبلية عنصرا بارزا في حروب المرابطين، فكان لكل فرقة رايتها الخاصة تسير تحتها عند أول إشارة، لمقابلة العدو في أكمل نظام.[5]

وكانت رايات المرابطين مزخرفة بالآيات الكريمة، رايات أهل الأندلس حمراء ذات صور، ورايات الحشم ملونة،[6] ثم شكل مع الزمن جند الأندلس فرقا فرقا خاصة في الجيش المرابطي تحمل أعلام المدن التي تنتمي إليها مثل أشبيلية

1- الإحاطة ، ج1 ص 461، وتاريخ المغرب الوسيط، ص218

2- حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، المجلد الأول، دار السلمي بدار البيضاء المغرب، ط1 1384هـ/1965م ج1 ص209

3 -عنان محمد هبد الله: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة د ت ج1، ص 418، و سعدون عباس نصرالله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيوت ط 1985، ص172

4- الحلل الموشية، ص107

5- الإحاطة، ج1 ص460

6- حركات إبراهيم: المظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات الوحدة العربية، دار البيضاء، دون تاريخ ، ص 174

وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها، بيد أن القوات الأندلسية لم يكن لها في الجيش المرابطي كبير شأن إلا في حروب الأندلس.[1]

والظاهر أن اصطحاب النساء في القتال لم يكن جاريا لدى المرابطين،[2]وعلى العموم كان لكل قسم من القوات المقاتلة قائدها الخاص ويجتمعون في مجلس حرب،[3]يعقد قبل المعركة وترتب فيه خطط الدفاع والهجوم وفقا لتعليمات القائد العام للجيش. ويبدو أن هذه الطريقة في القتال لا تختلف عن سالف الجيوش الإسلامية، خاصة جيوش عقبة بن نافع التي فتحت المغرب أو جيوش موسى بن نصير التي خاضت حروبا ضد النصارى في الأندلس، وهي الطريقة المسماة بطريقة الكراديس.[4] ويظهر أن يوسف بن تاشفين كان مطلعا على هذه الطرق، وذلك ما قصده عند رده على كتاب ألفونسو السادس ببيت أبي الطيب المتنبي:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[5]

ومهما يكن فإن طريقة قتال المرابطين، كانت دائما تتكيف حسب ظروف المعركة والطبيعة الجغرافية مع المحافظة على الملامح العامة لأسلوبهم في القتال، الذي أظهر نجاعة في معركة الزلاقة. فكانت الخطة الأولية التي دبرت لمقابلة النصارى،[6] تقضي أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة والمتوكل بن بن الأفطس في ميمنتها وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس

1- أشباخ: المرجع السابق، ص474، وعنان: المرجع السابق، ص419

2- أعمال الأعلام، ج2 ص117

3- المريني: الجيش المغربي ، ص20، وسعدون عباس: دولة المرابطين، ص171

4- اللواء محمد شيت خطاب: عقبة ابن نافع الفهري، دار الفكر ط 1392هـ/ 1972، ص 40

5- الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت 1975ص90، وروض القرطاس، ص94

6- الحلل الموشية، ص41

في الساقة، بينما يتوزع المرابطون كمائن متفرقة تفاجئ العدو عند اللقاء وتمنعه من التراجع أو الفرار. بيد أن الخطة تم تغييرها، لأن جيش النصارى انقسم إلى قسمين يقود أحدهما الكونت "كارسيا" والكونت"رودريك" وهذا القسم هو الذي هاجم المعتمد، والقسم الثاني عهد بقيادة جناحيه إلى سانشو راميريس" ملك أرغون والكونت "ريموند" بينما قاد القلب ألفونسو السادس.[1] فهذا التقسيم فرض على الجيش المرابطي أن يلاقيه بنفس الطريقة، وتؤكد بعض الروايات أن ابن عباد كانت تؤازره قوة من المرابطين بقيادة داود بن عائشة.[2]

ومن جهة أخرى وضع أهل المنطقة-الأندلسيين- في مقدمة الجيش لمعرفتهم بالمنطقة وطبيعة قتال العدو، وحتى يحافظ على أكبر قدر من جيش المرابطين المنظم الذي يدخره للضربة القاضية. ويذكر صاحب الحلل أن محلة الأمير يوسف بن تاشفين كانت بعيدة عن المعركة. ولما عرف بداية المعركة ركب وأصدق به زعماء لمتونة وكبار صنهاجة وسائر عساكره، وقصد بهم محلة الطاغية-ألفونسو- فاقتحمها وأضرم النار فيها،[3] وضرب طبوله فاهتزت لها الأرض وتجاوبت الآفاق فارتاعت قلوب العدو وتخلخلت صفوفهم.

وما يستنتج من هذه المعركة أن المرابطين كانوا يتعمدون الغموض في قتالهم و التمويه في خطتهم، ولذا فشلت المحاولة التي دبرها ألفونسو بهجومه المباغت على الجيش الإسلامي،[4]إذ لم تكن له القدرة الكافية لاكتشاف

1- أشباخ: المرجع السابق، ص83

2- روض القرطاس، ص54

3ا-لحلل الموشية، ص43

4- انظر وقعة الزلاقة، دراسة في مجلة دراسات في الحضارة الإسلامية (سلسلة توجيهية ثقافية) وزارة الدفاع الوطني ، المطبعة المركزية للجيش ، عدد 1سنة ، ص60، وأشباخ: المرجع السابق، ص83

قوة خصمه وخطته القتالية. وقد تطور هذا النظام بعد يوسف بن تاشفين وفي حروب الأندلس خاصة، فكانت فرق الحشم في الصف الأمامي، وفي الساقة (القوة الاحتياطية) جنود الأندلس، وفي الجناحين أهل الثغور، وفي القلب المرابطون يتوسطهم الأمير أو القائد العام.[1]

ولعل التوسع المرابطي في الأندلس وتعرفهم على خباياها الحربية، هو الذي جعلهم يقلصون من اعتمادهم على القوة الاحتياطية. يذكر ابن الخطيب ترتيب الجيش المرابطي في المعركة سنة527هـ، عندما قصد الروم ناحية بطليوس وباجة ويابرة.[2] خرج إليهم تاشفين بالقرب من الزلاقة فكان ترتيب الجيش المرابطي كالتالي: "فلما تراءى الجمعان واضطربت المحلات ورتبت المراكب، فأخذت مصافها، ولزمت الرجال مراكبها، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين، وأصحاب الطاعات وعليه البنود الباسقات، مكتّبة بالآيات، وفي المجتبين كبار الدولة من أبطال الأندلس، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة، وفي الجناحين أهل الثغور والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المرقعات،[3] بالفذيات المجزعات، وفي المقدمة مشاهير زناتة، ولفيف الحشم بالرايات المسبغات والأعلام المنبقات".[4] ومعنى ذلك أن قوتهم الأصلية تقوم على الفرسان مع أنهم كانوا يقدمون في الصف الأول أشجع جندهم من

1- ابن الخطيب: تاريخ المغرب الوسيط، 258

2- بطليوس: *Bdajoz*من أعظم قواعد الأندلس القديمة، تقع في جنوب غرب أسبانيا على حدود البرتغال. باجة: *Beja* من قواعد الأندلس أيضا، تقع جنوب البرتغال. ويابرة:*Evora* تقع في البرتغال شمال باجة.

3- أي خرق الألوية

4- انظر الإحاطة: ج1 ص460 وذكر في نفس النص في الحلل الموشية، ص61

المشاة.[1] ولعل أهم الفنون القتالية التي يمكن استخراجها من معارك المرابطين ومسيرهم الحربية:

1- اختيار موضع المعركة: ولذلك أهمية في كيفية توزيع الوحدات القتالية واختيار المواقع الحساسة في المعركة، بدليل قول ألفونسو السادس بعدما بلغه كتاب يوسف يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب فقال للرسول: " قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك " وسمح ذلك ليوسف اختيار مكان المعركة" فنزل بموضع الزلاقة من أحواز بطليوس، وتقدم المعتمد وأمراء الأندلس ونزلوا بجهة أخرى بينهما ربوة حاجزة ترهيبا للعدو، وبين الفريقين وعسكر الروم نهر حاجز يشرب منه هؤلاء وهؤلاء".[2] وهكذا كان جيش يوسف وراء الجبل الذي عنده ابن عباد، فظن ألفونسو السادس أن عساكر المسلمين ليس إلا الذي يرى.[3] فالاختيار الدقيق لموضع المعركة مكّن ابن تاشفين من كسب الوقت،[4] ومخادعة ألفونسو من جهة أخرى، وربما تأديبا لابن عباد من ناحية ثانية أو أنه أراد التخلص منه للهيمنة على ملكه.

2- الحذر الشديد: كان يوسف شديد الحذر منذ جوازه الأندلس لأنه حديث عهد بطبيعة البلاد، ولم يسبق له أن حارب جيشا نصرانيا،ولم يكن

1- محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين، ص419ن وأشباخ: تاريخ الأندلس، ص479

2- روض القرطاس، ص94

3- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الجزري)تـ630هـ/ 1233م،. الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1386هت/ 1966م ، ج10 ص153

4- العربي إسماعيل: دولة بني زيري ملوك غرناطة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص175

واثقا من حلفائه الأندلسيين ولذا قاد المعركة بنفسه،[1] وأراد ملاقاة النصارى في ناحية بطليوس، حتى لا يتوغل كثيرا في أرض الروم.[2]

أما ألفونسو السادس، فكان يرغب أن يتم اللقاء في أرض المسلمين صونا لبلاده، ولكي يتمكن من الانسحاب آمنا إليها إذا حلت به الهزيمة.[3] ولكن إدارك يوسف محاولة الخداع و المباغتة التي قام بها ألفونسو دليل حذره الشديد وعدم الثقة في العدو. لأن ألفونسو أرسل لابن تاشفين يقول له:"غدا الجمعة هو يوم راحة عندكم، والأحد يومنا، والسبت يوم راحة اليهود وهم كثر من جندنا، فاقترح أن يكون القتال يوم الاثنين". لكن ألفونسو بدأ الهجوم يوم الجمعة فوجد المرابطين له بالمرصاد، ولقنوه درسا قاسيا. ومع ذلك أراد يوسف بن تاشفين ألا يقطع على نفسه خط الرجعة والانسحاب في حالة الهزيمة باستعمال القوة الاحتياطية. ولهذا نجد المرابطين في حروبهم الكثيرة، وخاصة في الأندلس لم يحدث لهم أن فقدوا الكثير من جندهم حتى في هزائمهم وذلك لشدة حذرهم.

3- المباغتة: اعتمد المرابطون الحرب الخاطفة المباغتة للعدو بالهجوم على محلته من الخلف،[4] حتى يحدث الارتباك في صفوف الخصم، ويفرض عليه طريقة قتال تجعله في حالة دفاع بعدما يتصور نفسه في حالة الانتصار وتقدم. ولذا لما رأى ابن تاشفين أن الجيش القشتالي التحم بالأندلسيين، نفذ خطته

1- الطيبي أمين توفيق: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب ليبيبا- تونس، ط1984 ، ص 165

2- مذكرات الأمير عبد الله أسماه (كتاب التبيان) نشره ليفي بروفنسال، القاهرة 1955م ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) تـ 708هـ/ 1308م، ص105

3- الحميري: الروض المعطار، ص88

4- روض القرطاس، ص90 *Jacques. C. Risles ; la civilisation arabe, Payot Paris* 1955 *p* 215

بالمباغتة من الخلف، ولذلك لم يرسل إلى المعتمد إلا المدد القليل الكافي حتى لا تسحقه الأعداء،[1] ثم وفق في تنفيذ الخطة الحربية حين زحف بأكبر جزء من جيشه على معسكر ألفونسو، وأجرى مذبحة هائلة في الجنود الموكلين بحراسة المعسكر، وأشعل النار في المحلة، وانقض على ظهر القشتاليين فقتل من كان بها من الأبطال والرجال والفرسان، وفر الباقون منهزمين نحو ألفونسو.[2] وصار بذلك جيش ألفونسو بين فكي كماشة، حينما أدرك هذا الأخير أن الجيش الذي باغته من الخلف أضخم عددا من الذي في مواجهته، فاضطر أن يحول قوته الرئيسية إليه،[3] وحمي الوطيس وصار زمام الأمور في يد المرابطين بعدما ظن الروم أنهم كسبوا المعركة، ولكن في الحقيقة كسبوا جولة وخسروا المعركة خسارة مخزية.

4- القتال على دفعات: وما يلفت النظر في حروب المرابطين أنهم يقاتلون في المعركة بأقسام الجند على دفعات، ولا يغامرون لأول وهلة،[4] وربما هدف ذلك جس النبض، ومعرفة أجواء القتال بشكل جيد لتحديد الخطة النهائية لطريقة القتال، وتخوفا من المفاجآت التي يتوقعها من الخصم، ولعل هذا ما قصده ابن الصيرفي في قوله:

إيـــاك تعبئة الجيوش مصيـــفا والخيل تفحص بالرجال وتمزع

1- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل الجيلالي، ط1351هـ/1933م، مطبعة عيسى الباي وشركاؤه، مصر ص 304

2- روض القرطاس، ص95

3- دوزي: نفس المرجع، ص308

4- المقري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني) تـ 1041هـ/ 1231م: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1978، ج6 ص86، والكامل في التاريخ، ج8 ص142

واحذر كمين الروم عند لقائها واخفي كمينك خلفها إذ تدفع[1]

وفي معركة الزلاقة رغم السرية والدقة في التخطيط العام لصيرورة المعركة، وتوزيع المهام والمستويات توزيعا هادفا، فقدأرسل الجيش الأندلسي، وقائده داود بن عائشة في جيش من المتطوعة ووجوه المرابطين كقسم للصدمة الابتدائية مع العدو.[2] وبعث القسم الثاني بقيادة سير بن أبي بكر في قبائل المغرب وزناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر كقسم ثاني للقيام بدور النجدة ومؤازرة داود بن عائشة وابن عباد. وبقي هو في جيش لمتونة وقبائل المرابطين من صنهاجة وحرسه الخاص كقسم ثالث لتطوير المعركة وتأمين فرص النصر النهائية[3]بالهجوم على محلة ألفونسو، وذكر ابن عذاري أن المرابطين كانوا يقسمون الجيش فرقتين فقط.

ولعل النصارى تفطنوا إلى طريقة قتال المرابطين بعدما تكبدوا على أيديهم هزائم عديدة، ومنها المعركة التي وقعت قرب سرقسطة سنة 503هـ فيقول ابن عذاري:"وقسّم ابن رذمير جيشه فرقتين، وصدمت أحداها القائد المرابطي محمد ابن الحاج، وصدمت الأخرى ابنه أبا يحي، فانهزم محمد ابن الحاج واستشهد، وفقد في تلك المعركة جملة من المسلمين"،[4]ومعنى ذلك أن المرابطين أيضا كانوا فرقتين مثل النصارى فانهزموا في حرب مكشوفة.

-5 التكيف بظروف المعركة: وأهمها تكييف السلاح بما يتلاءم وعدة وعدد العدو، يذكر صاحب الحلل في حصار الموحدين لمراكش:"تنبه أحد المرابطين إلى ضرورة تقصير الرماح إلى ستة أذرع، ويبرزوا إليهم أول النهار: "

1- الحلل الموشية، ص

2- روض القرطاس، ص95

3 - مهدي الجالي: معركة الزلاقة في الميزان: مجلة دعوة الحق، عدد10 سنة 1960، ص86

4- البيان المغرب، ج4 ص54

فما انتصف حتى أدخل البلد منهم ثلاثمائة رأس، وسر بذلك الناس بمراكش ونشطوا، فأمر في الحين أمير المسلمين علي بن يوسف بخروج العسكر وقدم عليه أبو محمد بن وانودين، فالتقوا وهزم الموحدون وسائر المصامدة وقتل منهم كثير".[1]وتكيفا مع ظروف القتال لجأ المرابطون في الكثير من حروبهم ومعاركهم خوضها ليلا[2] إذا كان ذلك في صالحهم، وقد جاء في قصيدة ابن الصيرفي الغرناطي في فنون الحرب بعد معركة خاضها الأمير تاشفين بن علي ضد الأسبان ليلا:

والليل مضجع أترابك بينهم صبح على هام الكمات ملمع [3]

6- القتال المتناهي: وهو ما يمكن أن نسميه حرب الإبادة حيث يذكر صاحب المعجب[4] وغيره أنه لم ينج مع ألفونسو في الزلاقة إلا ستة من أصحابه.[5] فالمرابطون تغلب عليهم البساطة،[6] لكنهم تميزوا بالخشونة، ولذا أجمع أجمع المؤرخون على وصف قتالهم"بالشدة والبأس".[7]

نظام المعركة عند الموحدين:

كان نظام القتال لدى الموحدين لا يختلف كثيرا عما لدى المرابطين، فقبل الإقدام على خوض المعركة تتخذ عدة إجراءات:

---

1 - الحلل الموشية، ص85

2- عبد الحق المريني: الجيش المغربي عبر التاريخ، ص21

3- راجع القصيدة كاملة في الحلل الموشية

4- المراكشي: المعجب، ص134

5- ولم يتفق المؤرخون في تحديد الناجين، ولكنهم أجمعوا على أن جيشه أبيد قادة وجنودا إلا القلة، وألفونسو في حد ذاته أصيب في ركبته.

6 - أشباخ: تاريخ الأندلس، ص481

7- الحلل الموشية، ص10، والبكري: المغرب، ص 160

-يعقد مجلس حربي يشترك فيه عادة شيوخ المجلسين- العشرة والخمسين- وقواد الجيش البارزين، يعرض فيه أمير المؤمنين أو القائد الأعلى - في حالة غيبته- العوامل التي أدت إلى القتال، ويبحث معهم خطة المعركة، وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع.[1] وكان لآراء قادة الأندلس مقاما كبيرا، واعتبارا مرموقا عند القيام بحرب ضد النصارى بالأندلس لما لهؤلاء القادة من الإلمام تام بطرق بلادهم، ومسالكها وفهم طبائع أهلها.[2] وقد برهنت الأحداث على صحة آرائهم ونجاح خططهم.

- حرص الموحدون أن لا يدخلوا معركة دون معرفة حيثياتها،[3]خوفا من دخول معركة استدراجية خطط لها مسبقا. ولذا تقوم عيونهم وقواتهم الخفيفة باستطلاع كل ما يتعلق بالعدو،[4] من عدده ومواقعه وأحواله، ثم يحددون خطتهم على أساس هذه التقارير. فكان التريث وانتظار الفرص من أهم طرق قتالهم. ذكر ابن خلدون أن عبد المومن استغرق ستة أشهر لقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة تقطعها الفرسان الخفيفة في نحو شهرين. واستطاع الموحدون أن يعرفوا بواسطة عيونهم الحصن الذي بناه تاشفين بن علي على شاطئ البحر في بعض جهات وهران،[5] بل أمكنهم ذلك الوصول إليه وإضرام النار فيه، وتسبب في هلاك الأمير تاشفين عندما حاول الفرار في شهر رمضان سنة 539هـ.

1- الحلل الموشية، ص 167

2 - ذكر محمد بن مخلوف نقلا عن ابن الغازي، أن عبد المومن استعان بآراء ابن الغازي في فتح المهدية. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط 1349هـ، دار الكتاب العربي بيروت، ص 137

3 - عبد الله غلام: الدولة الموحدية، ص 41

4- أشباخ: المرجع السابق، ص488

5- عثمان جوريو: النظم الإسلامية، ص 153

-التمايز بين عناصر الجيش، وأهميته شحن التنافس بين القبائل في الإقبال على القتال ودرء الفتنة والمناوشات التي تقع أحيانا بين القبائل، مثلما حدث بين العرب والموحدين أمام ممر السباحة.[1] ويورد السلاوي هذه الظاهرة في جواز الأمير يوسف بن عبد المومن إلى الأندلس سنة 580هـ بقوله: " فسار من فاس حتى انتهى إلى سبتة، وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس، فجازت قبائل العرب أولا، ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة، ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر، ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز والرماة، فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد".[2] ويذكر ابن صاحب الصلاة أن الموحدين قبل فتح مرسية تمايزوا شعوبا وقبائل. وكان التمييز يتم بطريقة نظامية ومكتوبة يشرف عليها ديوان خاص يسمى ديوان التمييز، وله كاتب يسمى كاتب الديوان أو كاتب العسكرية، وتتم العملية الإحصائية للجيش بطريقة دقيقة، حتى أن كاتب العسكرية قال للأمير مرة:"وجدت في هذا التمييز الزيادة".[3]

وكان مسير الجيش بعد صلاة الصبح على دفعات متلاحقة، ويتقدمه صاحب اللواء الأبيض[4] مع فرقة من المشاة، والمسافة بين مقدمة الجيش، وبين ركب الخليفة حوالي ربع ميل. وتأتي الرايات الكبيرة والطبول والمتطوعة، ثم جند كل قبيلة مرتين على نظام معين يخدم متطلبات المعركة، وكان من عادة عبد المومن الخروج للغزو في شهر صفر خاصة. ثم تأتي من وراء الخيام والمؤونة

1- المن بالإمامة، ص 280، وانظر(فتنة الزحام بين القبائل العربية في القنطرة) ص ص 343 344

2 - السلاوي : الاستقصا، ج2 ص154

3- المن بالإمامة، ص ص 434 436

4- عبد المومن بن علي: مجلة دراسات في الحضارة الإسلامية، ص38

تحمل على الجمال والبغال،[1] ثم القطيع من الحيوانات التي يحتاجها الجيش. وعلى عكس المرابطين كان الموحدون يصطحبون النساء والعائلات في الحروب، وهو عامل يحفز الجنود ويزيدهم إصرارا على القتال، لأن الجندي يتخوف على أهله فيبلي في القتال ويستميت. وقد أورد ابن الأثير أن عبد المومن يصطحب معه النساء،[2] "فكن يسرن عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم، ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط".[3]

أما نظام المعركة عند الموحدين ينسب ابتكاره إلى عبد المومن،[4] ويقوم على فكرة"التربيع". وقد أورد صاحب الحلل الموشية هذه الطريقة بقوله:" قال اليسع حدثني غير واحد من الموحدين قال: لما نزلنا جبل تلمسان، نريد بلاد زناتة، أتبعنا المرابطون فتلاقينا معهم قال: فصنعنا دائرة مربعة في البسيط جعلنا فيها من جهاتها الأربع صنفا من الرجال بأيديهم القنا الطوال والطوارق المانعة، ووراءهم أصحاب المخالي فيها الحجارة ووراءهم الرماة، وفي وسط المربع الخيل. فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم لا تجد إلا الرماح الطوال الشارعة، والحراب والحجارة والسهام الناشرة، فإذا ماتوا من الدفع وأدبروا،

1- *Piquet. Victor ; Les civilisations de l'Afrique du Nord- Berbères- Arabes- Turcs, édition corrigée- librairearmand colin, Paris* 1921 , *p* 141

2- والظاهر أن اصطحاب النساء كان معتادا في الأندلس لدى الأمويين، وكذلك لدى قبيلة زناتة بما فيها الموحدون وبنو مرين في بداية دولتهم: انظر الذخيرة السنية، ص 131، وأعمال العمال، ج2 ص117

3- الكامل في التاريخ، ج9 ص63

4- *R. Bourouiba ; Abdal Mumin*, p 72 و انظر عبد الله غلام :الدولة الموحدية، ص261

تخرج خيل الموحدين في طرق تركوها، وفرج أعدوها فتصيب من أصابت، فإذا كرت عليهم دخلوا في غاب القنا"[1]

ويتضح بذلك أن قوة الجيش الرئيسية من المشاة، فهي توضع في الصفوف الأولى وتسلح بالحراب الطويلة، ثم تليهم صفوف الجند من المشاة أيضا المسلحة بالسيوف والدروع الكبيرة المستديرة، ثم تليهم حملة النبال والقسي، أما قوة الفرسان فتكون في وسط المربع وتخصص لها مخارج بين الصفوف عند الحاجة إلى خروجها لتقوم بكرات سريعة، ثم تعود إلى أماكنها دون أن تخل بنظام المشاة. أما إذا استطاع جيش العدو أن يتغلب على القلب (الفرسان) والجناحين (المشاة). تتقدم قوات الضلع الرابع من هذا المربع وهو ما يسمى بالساقة أو القوة الاحتياطية لتقوم بقيادة الخليفة بالضربة القوية. وهي تتكون من خيرة الجند والحرس، وتتحصن أحيانا هذه القوة بنطاق من السلاسل الحديدية،[2] وتبرز من خلالها الحراب الطويلة، يصعب على العدو اختراقها لحصانتها، ولذا ترجح في كثير من الأحيان كفة النصر لصالح الموحدين،[3] وتلحق الضربة القاضية بقوات العدو.

ويجب أن نلاحظ أن استعمال السلاسل لدى الساقة، لم يكن من ابتكار الموحدين وإنما اقتباسا عن الروم والنصارى بطريقة أو أخرى، ولعل الحروب الكثيرة في الأندلس أو تجنيد النصارى بأعداد كبيرة ساهم في ذلك.

1- الحلل الموشية، ص98، و بدرأحمد: تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة ، دمشق ط 1401هـ/ 1981م ، ص239، والعبادي: دراسة حول كتاب الحلل الموشية، مجلة تطوان عدد 5 سنة 1960، ص156 وانظر *Piquet* : *les civilisations de l'Afrique*, p 141 ، وإبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج1 ص 328

2- محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص340

3- أشباخ: المرجع السابق، ص489

وقد سلك هذا النظام عبد المومن واختلف عنه خلفاءه بعض الشيء، بعد أن تكاثرت عناصر الجيش، فأصبح المتطوعة والأغزاز والرماة يحتلون المقدمة وجند الأندلس في الميمنة، وسائر القبائل في الميسرة وفيهم العرب والمصامدة،[1] وزناتة وغيرهم، بينما يحتل الخليفة القلب ومعه كوكبة من فرسان هنتانة.

ويذكر السلاوي نظام الموحدين في معركة الأرك بقوله: "فعبأ الشيخ أبو يحي عساكره تعبئة الحرب وعقد الرايات لأمراء القبائل، وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها،[2] فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب في قبيلة هنتانة".[3]

وتبدأ المعركة بتقديم أصحاب الرماح لتصطدم بهم خيل العدو المهاجم، فإذا اندفعت جيوش العدو وتمكنت تجاوز الصفوف الأمامية الأولى من المتطوعة والأغزاز والرماة وحاولت الوصول إلى القلب، تزحف الميمنة المتكونة من العرب والمصامدة وزناتة، وتحاصر الكتيبة التي توغلت نحو القلب فتجهز عليها. ولما يشتد وطيس المعركة وتظهر شوكة الموحدين يستعد الأمير للضربة القاضية، فيأمر برفع الرايات وقرع الطبول، ويرفع المسلمون أصواتهم بالتكبير ويزحف

1- الحلل الموشية، ص188، وحركات: النظام الحربي، ص177، ونفس المؤلف: المغرب عبر التاريخ، ج1 ص328

2-" عقد للقائد ابن صناديد على جيش الأندلس، ولجرمون بن رياح على القبائل العربية، ولمنديل بن عبد الرحمن المغراوي على قبائل مغراوة، وليمون ابن أبي بكر بن عمامة المريني على قبائل بني مرين، ولجابر بن يوسف على قبائل بني عبد الواد، ولعباس بن عطية على قبائل بني توجين، ولتوجين بن علي على قبائل هسكورة وسائر المصامدة، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة، وللفقيه صالح ابن حزر الأوربي على المتطوعة" انظر السلاوي: الاستقصا، ج2 ص188

3- الاستقصا، ج2 ص189، ومصطفى أبو ضيف: القبائل العربية، ص 95

الأمير نحو المعركة بحرسه الخاص،[1] فيتبرك العدو ويدرك أن المعركة لم تبدأ إلا الآن.

وفي عهد الناصر يذكر المؤرخون أنه كان يقسم الجيش إلى خمس فرق، الأولى من العرب، والثانية من زناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب، والثالثة من المتطوعة والرابعة من جند الأندلس، والخامسة من الموحدين".[2] وهذا التنظيم خاض به حروبه ضد ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وانهزم في معركة العقاب[3] سنة 609هـ، بعدما اغتر بكثرة جنوده.

وكان للموحدين مهارات قتالية عالية داخل المعارك، اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية وكثرة حروبهم وتنوعها من جهة، وقوة التدريب الذي يقوم عليه الجيش من جهة أخرى ولعل أهمها:

-1 الخفة والشجاعة في القتال: وتتضح من طريق قتالهم التي تعتمد على الكر والفر وإتقان الرماية حسب ما ذكره *Huici Miranda*،[4] وفي قول أحد رؤساء الثغور بالأندلس للأمير علي بن يوسف المرابطي يصف له الموحدين وطريقة قتالهم:" يا أمير المسلمين قد كان عندي ببلاد الأندلس جماعة منهم وتعلم خفتهم وشجاعتهم".[5] وتظهر هذه الخفة بدفع المتطوعة في بدء المعركة،[6] قصد إرهاق العدو وجس النبض، ثم تقوم القوات النظامية المدربة بالهجمة الخاطفة التي تخرج من الفرج التي تفسح لها ثم تعود من أجل تحقيق

1- الاستقصا، ج2 ص191

2- الاستقصا، ج2 ص220

3- أبو ضيف مصطفى أحمد عمر:القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص98

4- ومصطفى أبو ضيف: نفس المرجع، ص96

5- يدعى عبد الله بن همشك من أتباع المرابطين. المن بالإمامة، ص145

6- عبد الله غلام: الدولة الموحدية، ص261

النصر السريع والسهل بأقل الخسائر. وكان للموحدين شجاعة لدرجة الاستماتة في القتال، وفي هذا الصدد ذكر ابن الأثير[1] أن الجيش الموحدي بقيادة أبي سعيد عثمان بن عبد المومن ثبتوا في إحدى المعارك التي انهزموا فيها حتى قتلوا عن آخرهم.

2- وظّف الموحدون العصبية القبلية بجعل القائد على رأس كل فرقة عسكرية من عرقها،[2]وهذا بهدف تقوية حمية العصبية في القتال، وقد اعتمد عليها عبد المومن، وظهرت بشكل جلي في تنظيم المنصور لموقعة الأرك.[3]

3- تعود الموحدون إرهاب العدو وإدخال الخوف في نفوس جنوده قبل المعركة الميدانية، ولذا يوضع في المقدمة جند الأغزاز ذوي الشعور الطويلة والمظهر المرعب.

فقد استعظم الإفرنج في المهدية ما رأوه من كثرة العساكر،[4]ودخل الرعب في قلوبهم وأخاف غز جيش يوسف بن عبد المومن- لما دخل شرق الأندلس- عساكر وجنود محمد بن سعيد بن مردنيش،[5] وكذلك استعمال الطبول عند الموحدين جزء من الحرب النفسية.

4- أما حيل القتال والخدع، فكانت من أهم فنون الموحدين في القتال، فيتصنعون الفرار أو يتظاهرون بالانهزام،[6] أو أنهم وقعوا في فخ العدو،[7]ثم

1- الكامل في التاريخ، ج9 ص79

2- المعجب، ص226

3- جاء في الحل الموشية في ذلك:" فإذا كان وقت النزول نزلت كل قبيلة من منزلها، ولهم رتب معلومة قيدها الحمد وحماها الخوف" ص 116

4- الكامل في التاريخ، ج9 ص64

5- الكامل في التاريخ، ج9 ص108

6- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4 دار النفائس الأندلس، بيروت ط1 1967، ج 4 ص371

العدو،[1] ثم يميلون ميلة قوية فيتفاجأ العدو، كما كان القادة يتسترون خلال المعركة[2] حتى لا يعرفون وخاصة في حالة الهزيمة. وكان للموحدين براعة كبيرة للقتال في المناطق الجبلية والوعرة[3] ويفضلون القتال فيها، ويعود ذلك إلى طبيعة البلاد التي نشأت فيها حركتهم. يذكر ابن صاحب الصلاة، أن جملة من خيل جرندة[4] سنة 563هـ، باغتوا مدينة رندة وغنموا ماشيتها ودوابها ومتاعها، فبعث إليهم الموحدون جملة من حاميتهم في غرناطة، فلحقوا بهم. وحين عاين الغزاة الموحدين لجأوا إلى جبل شاهق[5] ورغم ذلك حمل عليهم الموحدون وأزعجوهم فيه حتى تردوا من حافته وهزموهم وأنقذوا ما أخذوه.

5- اعتمد أيضا الموحدون حرب الإبادة لزرع الرعب في نفوس الأعداء قال ابن أبي زرع:"أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور تحرك سنة 585هـ لغزو بلاد الأندلس، فنزل شنترين، وشن الغارات على مدينة لشبونة وأنحاءها، فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسلب وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكاية، وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألف من السبي حتى دخل فاس.[6]

ورغم هذه الفنون القتالية كان الأمير الموحدي يراجع الجند بعد نهاية المعركة، ويعاقب من قصر في مهامه، فقد عاقب الأمير الموحدي قبيلة هسكورة

1- المن بالإمامة، ص402

2- الاستقصا، ج2 ص224

3- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)تـ ق6هـ/ 12م: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط2 1986، ص68

4- جرندة: *Gialdo* الجليقي أحد أتباع ابن مردنيش بوادي آش في نواحي غرناطة.

5- المن بالإمامة، ص356

6- روض القرطاس، ونقل عنه السلاوي، ج2 ص 187

بعدما أدبروا وفروا في المعركة، فأمر بضربهم بالسياط وعقابهم[1] بطردهم خائبين دون علف ولا زاد لحيواناتهم.

خاتمة :

والخلاصة أن أهم طريقة قتال لدى المرابطين هي النظام الخماسي الذي عماده قوة الفرسان بهدف تحقيق انتصارات حاسمة، وتظهر في هذا النظام الكثير من بصامات نظم الجيوش الإسلامية الفاتحة. في حين اعتمد الموحدون نظام التربيع الذي ينسب ابتكاره إلي عبد المؤمن بن علي، حيث يجعل القوة الرئيسية والضاربة في الجيش للمشاة، و الملاحظ عليه أنه متأثر بطريقة قتال الروم.

1- المن بالإمامة، ص 501.

قائمة المصادر والمراجع:

-1

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الجزري)تـ630هـ/ 1233م. الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1386ه / 1966م.ا

-2

لبيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)تـ ق6هـ/ 12م: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط2 1986.

-3 السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)تـ 1315هـ/ 1936. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب دار البيضاء، ط 1934.

-4

مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق السيد البشير الفوزي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس ط1 دو تاريخ طبع.

-5

ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)تـ 726هـ/ 1325م. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مطبعة فاس 1305هـ.

-6

بن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة، نشر وتحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف مصر. ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي) تـ 712هـ: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، ط بيروت 1967م.

-7

بن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)تـ 681هـ/ 1282م،25. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت 1971.

-8

بن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد) تـ 776هـ/ 1374م: القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحت عنوان (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) تحقيق، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب ، الدار البيضاء ط 1964.

-9

بن خلدون: المقدمة، ص 295، وانظر دائرة المعارف، إدارة فؤاد البستاني، بيروت 1958.

10- المراكشي (عبد الواحد بن علي) تـ 669هـ/ 1270م. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح الأستاذان محمد سعيد ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ط1 1368هـ/ 1949م.

11- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد)تـ 596هـ37. المن بالإمامة على المستضعفين بأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، استخرجه من مخطوط أكسفورد بأنجلترا عبد الهادي التازي وحققه، دار الأندلس بيروت، ط1 1383هـ/ 1964م.

12- القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1086ه

13- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي) تـ 487هـ/ 1094م: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك، نشره *Deslane* بعنوان: *Description del'Afrique septentrionale* الجزائر ط 1911.

14- الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت 1975ص90، وروض القرطاس.

15- مذكرات الأمير عبد الله أسماه (كتاب التبيان) نشره ليفي بروفنسال، القاهرة 1955م ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) تـ 708هـ/ 1308م.

16- أشباخ: تاريخ الأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة ط3 1377هـ/ 1958.

17- أمين توفيق طيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط تونس 1984.

18- جورج عثمان: النظم الإسلامية في المشرق و المغرب و الأندلس، منشورات مكتبة الوحدة العربية، دار البيضاء بالمغرب، د ت ص.

19- طاروجان وجيروم: أزهار البساتين في المغرب على عهد المرابطين والموحدين، ترجمة أحمد بلا فريج و محمد الفاسي، المطبعة الوطنية، الرباط ط 1349هـ/ 1930م .

20- غلام عبد الله علي: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن علي، دار المعارف مصر، ط 1971.

21- وحسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام

22- المريني عبد الحق: الجيش المغربي عبر العصور، الرباط بوتيه، 1967،

23- حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، المجلد الأول، دار السلمي بدار البيضاء المغرب، ط1 1384هـ/1965م.

24- عنان محمد هبد الله: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة د ت.

25- سعدون عباس نصرا لله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيوت ط 1985.
26- حركات إبراهيم: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات الوحدة العربية، دار البيضاء، دون تاريخ.
27- اللواء محمد شيت خطاب: عقبة ابن نافع الفهري، دار الفكر ط 1392هـ/ 1972.
28- العربي إسماعيل: دولة بني زيري ملوك غرناطة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص175
29- الطيبي أمين توفيق: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب ليبيبا- تونس، ط1984 .
30- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل الجيلالي،ط1351هـ/1933م، مطبعة عيسى الباي وشركاؤه، مصر.
31- مهدي الجالي: معركة الزلاقة في الميزان: مجلة دعوة الحق، عدد10 سنة 1960، ص86
32- محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط 1349هـ، دار الكتاب العربي بيروت.
33- العبادي: دراسة حول كتاب الحلل الموشية، مجلة تطوان عدد 5 سنة 1960
34- أبو ضيف مصطفى أحمد عمر:القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص98
35- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4 دار النفائس الأندلس، بيروت ط1 1967.
36- Lévi. Provençal ; l'Espagne Musulmane au 10 eme siècle Paris 1931. Jacques. C.
37- Risles ; la civilisation arabe, Payot Paris 195
38- Piquet. Victor ; Les civilisations de l'Afrique du Nord-Berbères-Arabes- Turcs, édition corrigée- librairearmand colin, Paris 1921.